السلطان سليمان أبو الربيع بن محمد بن عبد الله

ولد عام ١١٨٠ ثمانين ومائة وألف موافق ١٧٦٦-١٧٦٧.

وبويع له بفاس بالضريح الإدريسي يوم السبت سابع عشر رجب عام ستة ومائتين وألف موافق ١١ فبراير سنة ١٧٩٢.

وتوفي في رابع عشر ربيع الأول عام ثمانية وثلاثين ومائتين وألف موافق ٢٩ نوانبر سنة ١٨٢٢ مسيحية، وكان الذي تولى كتب البيعة له العلامة الشيخ التاودي ابن سودة المزي رحم الله الجميع بمنه.

لا أحتاج هنا إلى شرح النهضة العلمية التي كانت في زمنه لاشتهارها اشتهار شمس الظهيرة:

وكيف يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

ومن آثاره بفاس تأسيس المسجد الأعظم بالرصيف الذي لا نظير له، وقد كان حفر أساسه أخوه السلطان يزيد كما تقدم ولم يتيسر له وضع لبنة على لبنة وادخر الله تلك الحسنة العظمى لهذا الملك نقش في الجبس على خدي المحراب: (النصر والتمكين، لمولانا سليمان أمير المؤمنين). تنبيها على أنه الباني.

ومنها سقاية الرصيف أسسها عام ١٢٠٨ ثمانية ومائتين وألف يدل لذلك ما هو منقوش في زليج أعلاها، ولفظه:

تأمل سبيلا فاق كل نهاية ... وأضحى به في غربنا يضرب المثل

وحاز فخارًا إذ تشيد للورى ... بدولة من ساد الملوك ومن عدل

سليمان أبقى الله رابة ملكه ... فلولاه نجم الدين كان لنا أفل

فإن جئته ظمئان حر ونلت من ... زلال ألبذ بل وأحلى من العسل

فقل يرحم الرحمن ناظر عصرنا ... (محمدًا الفندوشي) حبذا ما فعل

وتاريخه ما قد حواه (شرابه) فرد مشربا تحظى به غاية الأمل

سولاى سليمان ٦٨

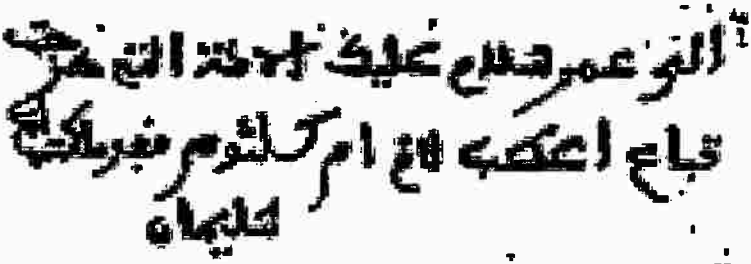

(خط المولى سليمان)

بطاقة كتبها لوالده المولى عمر ٦٩

وما بدائرة قوس السقاية المذكورة في نقش زليج أسود أيضا ولفظه:

نـــال كـــل المنـــى مـــوافي ســـنائي ... يمنبـــي ظـــاهر بغـــير انتهـــاء
لم يكـــن لعـــلا جمـــالي شـــبيه ... أصـــبح الـــسعد حـــاملا للـــواء
حـــسبني في الفخـــار رمـــزي (شرح) ... للـــصدور ومنبـــع للـــدواء
فاخـــضعن نحونـــا تـــرد ســـبيلا ... كـــافلا بـــالمنى جزيـــل عطـــاء
وســـئلن البقـــا لمـــاحي ضـــلال ... أســـعد الخلفـــاء والأمـــراء
حلبـــه الملـــك نخبـــة الفـــضل حقـــا ... كامـــل المجـــد تـــاج أهـــل الثنـــاء
ذي المعـــالي (أبي الربيـــع) أمـــامي ... عـــالم فاضـــل سريـــع الجبـــاء
وبنـــسبته توســـل لـــربي ... في دوام العـــلا بكـــل فنـــاء
مـــع نبـــل الـــرضى لمبـــدي بنـــائي ... لـــه نـــصح نـــاظر لمـــن هـــو راء
ســـالك ســـبل الرشـــاد بحـــزم ... ماجـــد نـــال عـــزا دون مـــراء هـــ

وقد أوردت هذه الأبيات جمعا للنظائر وضبطا للتاريخ من غير مراعاة لفصاحة الألفاظ ولا لبلاغة المعاني وانسجام التراكيب.

ومنها تأسيس ضريح الشيخ أبي الأرشاد الناودي ابن سودة وذلك عام تسعة ومائتين وألف يدل لذلك ما قرأته في نقش زليج أسود بأعلى باب الضريح المذكور، ولفظه:

بـــشراك زائـــر هـــذا البيـــت بـــشراك ... فقـــد بلغـــت المنـــى والأمـــن وافـــاك
فأنـــت بـــين مـــصلاهم ودارهـــم ... فـــسل ومـــد إلى مـــولاك يمنـــاك
لا غـــرو أن فـــاق فـــضلا كـــل زاويـــة ... فقـــد بنـــاه أمـــير عـــز أدراكـــا
(أبـــو الربيـــع) فخـــار الملـــك عادتـــه ... بـــذل المواهـــب أن ســـألت أغنـــاك
لـــشيخه وإمـــام الوقـــت ســـيدنا الـــ ... ـــناودي وعـــلاه لـــيس يخفـــاك

أبقاه ربه يهدي الخلق منفردا فلذ به عليه في الحشر يرعاك
والفندوشي أمام ناظر واقف عامله يا رب يا ربي برحماك
تاريخه وهو (شطر ١٢٠٩) من ملاحنه يتم مستبشرًا طلقا محياك

أشار للتاريخ المشار بلفظ شطر في البيت الأخير.

وهدم مسجد الديوان إذ كان صغيرًا وزاد فيه أملاكا ابتاعها من أربابها بمال لا شبهة فيه وصيره مسجدًا جامعا للخطبة، وذلك البناء هو القائم العين الآن كتب على باب هذا المسجد من إنشاء العلامة الأديب الشيخ حمدون ابن الحاج ما لفظه طبق ما قرأته في ديوانه ومن خطه نقلت:

نظرت ما تشتهيه العين منك فقل الله ينصر مولانا سليمانا
باني قواعد دين المصطفى ولكم قد هد مما بنى الضلال أركانا

وأسس مسجد الشطة بالطالعة عام ١٢١٣ يدل لذلك ما كان مرقوما في نقش الجبس على بابه حسبما قرأته في ديوان ابن الحاج المذكور ولفظه من خطه:

أنا البيت المقدس في ارتفاع وتاريخي يرى للناظرينا
بناني من له ويلي جود (سليمان أمير المؤمنينا)

ولعل ذلك نقش ثم أخنى عليه الدهر إذ لم يبق له أثر اليوم على الباب المذكور.

وبنى مسجد الشيخ علي أبي غالب وضريحه وأنشأ به بيوتا يسكنها ذوو العاهات من الرجال والنساء، وفرق بينهما، قال في التقاط الدرر عند ما أجرى ذكره: وأبو غالب هذا مشهور بالزيارة للاستشفاء من الأمراض والعاهات، سيما القروح والجراحات هـ.

وبنى ضريح الشيخ عبد الوهاب التازي وجدد مدرسة الوادي ومسجدها بعد أن هدمها لإنشاب الخراب أظفاره بهما وأعاد بناءهما على أتقن وأبدع مما كانا عليه قبل

وأجرى إصلاحات ذات بال بالمدرسة العنانية محافظة على ذلك الأثر النادر الوجود.

وجدد مسجد القصبة البالية وجدد حِبسَه، وجدد بناء باب الفتوح وصيره أضخم مما كان.

وبنى باب المسافرين، وبنى باب الجديد، وأصلح أسوار المدينة كلها وأدار السور من القصبة إلى فاس الجديد على مساحة أبي الجند وبنى القنطرة على الوادي بينهما، وجدد قنطرة الرصيف مرتين وأصلح قنطرة وادي سبو.

وأصلح طرقات فاس كلها ورصف بالحجارة داخلها وخارجها، وأصلح أبواب فاس الجديد كلها ورمم ما تثلم منها وجدد قصور الملك الخربة بها وزاد غيرها وأمر بتبييض مساجد الخطب وتبليط أرضها.

ومن آثاره منع المسلمين من الرحلة للتجارة بأرض الروم، ومنها اتخاذه أمينا عارفا على سوق بيع الرقيق بحيث لا يروج فيه بيع ولا ابتياع إلا من صحت رقيته وثبت ملكه بالوجه الشرعي الذي لا شبهة فيه.

ومنها تجديده لمسجد الشرابليين وتوسعته وجعله مسجدا جامعا، وما جاء في الاغتباط من أن فاعل ذلك هو والد المترجم سبق قلم.

وكان يزور جامع القرويين كل آونة ويتردد على مجالس دروس الصدور من محققيه ويحضر فيها ويباحث ويبدي آراءه قبولا وردًا ويحل عويص المشكلات، ويزيل الستار عن غوامض المعضلات.

وكان يزور شيوخ العلم وقاداته بدورهم ويلبي دعوة من استدعاه منهم ويعود مرضاهم ويحضر جنائزهم؛ فقد زار المحدث أبا زكرياء يحيى بن المهدي ابن الطالب الشفشاوني أمام الضريح الإدريسي المتوفى أواخر ذي الحجة عام تسعة وعشرين ومائتين وألف ١٢٢٩ المقبور بالضريح المذكور، وكان هذا الشيخ يسكن بالحومة

الشهيرة بدرب الطويل من فاس. كما زار الشيخ التاودي بن سودة شيخ شيوخ العلم بفاس وعاد أبا محمد عبد القادر بن شقرون في مرضه الذي توفي به وحضر جنازته وحشره بيده في قبره بالضريح الإدريسي وما خرج حتى سوى التراب على قبره، وعاد قاضي الجماعة بفاس أبا العباس أحمد بن التاودي بن سودة، واستدعاه العلامة الشيخ حمدون بن الحاج السلمي لداره فأجاب دعوته ووصله بألف مثقال حسبما صرح بما ذكر غير واحد منهم صاحب الشجرة الزكية فانظره.

وكان يحضر اختتام العلماء في جملة الطلبة إجلالا لقادة العلم وتعظيما لحملة الشريعة؛ ففي رابع وعشري شعبان عام أحد عشر ومائتين وألف ١٢١١ حضر ختم شيخه أبي المواهب الطيب بن عبد المجيد بن كيران تفسير القرآن الكريم بزاوية الشيخ قاسم بن رحمون الشهيرة بالحضرة الفاسية.

ومن اعتنائه بالعلم وأهله أن أبا العلاء إدريس البدراوي، «الذي هو أول خطيب خطب بمسجد الرصيف كما وجدته بخط من يوثق به وقد ذكر في السلوة في ترجمته أنه كان خطيبا به ولكن لم يقل هو الأول»، نظم حقيقة الروم والإشمام في أبيات ثلاثة ذكرها في توضيحه، ونصها:

ضممت لا شمام لتفعل مثله ... فضنت وجاءت في القراءة بالأصل

فرمت بإخفاء لكي تدرك المنى ... فقالت أشيخ الذكر فاقرأه بالوصل

فإن وقوفي يقتل الصب حسنه ... فقلت لها قفي فقد لذلي قتلي هـ

وعندما اطلع عليها السلطان المترجم أمر له بجائزة قدرها مائة مثقال لكل بيت، وقد وجدت التنبيه على الجائزة بخط العلماء الأثبات؛ وأما الشيخ فلم يذكرها وكان السلطان شديد الاعتناء به.

ولما أكمل أبو عبد الله محمد فتحا الجريري شرحه على قافية ابن الونان الموسومة

بالشمقمقية وقدمه هدية للمترجم أجازه عليه باثنتي عشرة مائة مثقال فضة وذلك عام خمسة وعشرين ومائتين وألف فقد قرأت بخط ابن عمنا العلامة الثبت مولاي الهاشمي بن محمد فتحا البلغيثي الشريف الحسيني أنه وقف على هذا الشرح في مجلدين ضخمين عند مولاي عبد السلام نجل صاحب الترجمة وطالعه من أوله إلى آخره وقيد منه نفائس ودررا ثمينة في فاتح قعدة الحرام عام ثلاثة وأربعين ومائتين وألف ومن خطه نقلت مباشرة.

وكان يحض على العلم ويشجع على تعاطيه ونشره بالتدريس والتأليف في مختلف الفنون وبالأخص علم القراءات والحديث اقتداء بأبيه وصالح سلفه؛ فمن ذلك أمره أبا العلاء إدريس بن عبد الله المذكور بالتأليف في مقرأ نافع المدني أبن عبد الرحمن فألف كتابه (التوضيح والبيان) قال في ديباجته: جعلته سلما لتعليم الصبيان، وتذكرة للشيوخ الماهرين بالقرآن، وقد أمرنا بوضعه من تجب طاعته، وطلعت في أفق العلا سعادته، وهو إمامنا الذي أبيض بسببه وجه الزمان، الشريف العالم أبو الربيع سليمان، واقترح علينا أن نضعه على ترتيب حروف المعجم، ليكون بذلك سهل التناول على من أراد منه أخذ الحكم، فها أنا لبّيت فورًا في تأليفه دعوته، راجيا من الله العظيم أن أتقن صنعته، على أنه لم يؤلف في هذا كتاب في القديم، حتى يغترف هذا من بحره العميم، فتشعب لذلك جمعه، وعسر عليّ غاية وضعه، لكن كابدته منفردا على ما أنا عليه من القريحة الجامدة، والهموم الناصبة والفطنة الخامدة، فيسر الله نظمه كالدرر واللجين، وذلك فيما أظنه في أقل من شهرين، فمن طالعه يعلم حقا أن ذلك الجمع الجميل، لا يكمل كذلك إلا في أشهر للنبيل، وما ذاك إلا من حسن قصد من تسبب في تأسيس بنيانه، وكيف لا وهو ممن يغرس العلم ويستظل تحت أغصانه، فكان بذلك في الأجر بمنزلة من باشر التعليم، إذ أرشد وهدى بذلك إلى صراط مستقيم هـ. وهذا المؤلف مما نشر بالمطبعة الحجرية بفاس، وهو متداول بين طبقات الناس.

ومن ذلك أمره له أيضا بتأليف في همزة الوصل، وفي الألف التي تزاد في الخط فامتثل ما أُمر به حسبما صرح بذلك في طالعة ما جمعه في ذلك، ولفظه:

وبعد فقد أمرني سيدنا الإمام، العالم العلامة الهمام، أبو المكارم مولانا سليمان أيد الله نصره، وخلد فيما يرضيه ملكه، أن أقيد في هذه الأوراق ما يتعلق بمسألتين: الأولى همزة الوصل فإنها كثيرًا ما تشكل على المعلمين، وتلتبس على المتعلمين، لكثرة ما يختلف فيها من الأحكام، وقلة من تتبع مسائلها وحرر فيها الكلام، الثانية الألف التي تزاد في الخط نحو: قالوا وآمنوا واتبعوا وما أشبه ذلك فإنها ساقطة من اللفظ وصلًا ووقفًا فما سر زيادتها في الخط في المواضع التي زيدت فيها فتعين علي الامتثال بقدر الاستطاعة والإمكان، وإن لم أكن من أهل هذا الشان، فقلت والله المستعان هـ وهذا المؤلف يوجد ضمن مجموع ١٩١ من نمرة المجامع بالمكتبة الزيدانية.

ومن ذلك أمره للعلامة أبي عبد الله محمد بن هنو اليازغي بشرح الشامل لبهرام، ففعل وكان ابتداء شروعه فيه صبيحة يوم الجمعة الثامن من شهر شعبان المبارك عام ثلاثة وعشرين ومائتين وألف حسبما صرح بذلك في طالعة الشرح وسمي هذا الشرح (الفتح الكامل في توضيح الشامل)، ووصل في شرحه إلى المرابحة يوجد بالمكتبة القروية الجزء الأول منه بخط ولده عبد الغني وأربعة أجزاء بعده كلها بخط مؤلفها، قال عبد الغني المذكور آخر الجزء الأول ما نصه:

وهذا هو آخر الجزء الأول من هذا الشرح المبارك الفتح الكامل في توضيح الشامل الذي هو من نتائج بركة الأمر المولوي المنصور بالله تبارك وتعالى لسيدنا الوالد الشيخ الإمام أبقاه الله تعالى وعلى يديه استخرجه نجله كاتبه عبد الغني لطف الله به بإذنه وإجازته من مبيضته التي أصلها طرر على النسخة قبل مطالعة الأمر المولوي بشرحه يتلوه كتاب الصيد فما بعد شرح ظاهر بخط المؤلف بارك الله فيه من أعمال عشرة كشرح المصنف بهرام ختم الله لنا بالحسنى، وجعله خالصا لوجهه الكريم الأسنى صح منه.

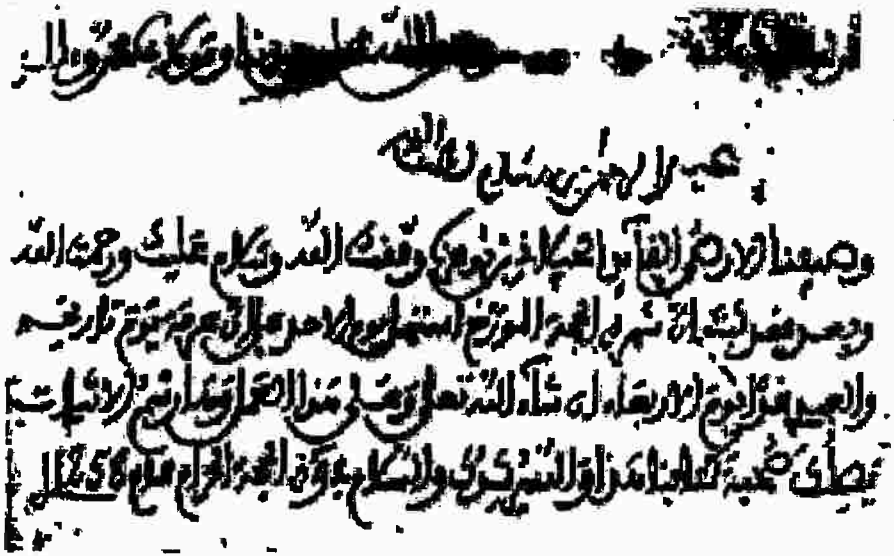

٧٨ السلطان المولى عبد الرحمن

يستقبل سفيرا بمكناس

وقد أدرك ابن هنّوا الأجل المحتوم قبل الإتمام فأمر المترجم القاضي أبا الحسن عليا التسولى بإتمامه فأتمه، قال في فاتحة الجزء السادس الذي ابتدأ فيه الشرح: إلى أن اطلع عليه الإمام الذي نسخ بنور هدايته ظلام الضلال، ووفى بسنة جده على التمام والكمال، محي العلوم ومعز الإيمان، ومذل الكفر وأهل العصيان، أبو المواهب سيدنا سليمان، أدام الله بهجة إمارته، وبسط على الأفاق أشعة إنارته، وجعل العضد قرين إرادته، فاستحسنه لما رأى من حسن عبارته وإشارته، فأمر بعض فقهاء الوقت وهو الفقيه العلامة سيدي محمد بن هنوا اليازغي نسبا الفاسي دارًا ومنشئًا بالتقييد عليه فامتثل وشرحه إلى فصل المرابحة، ومات رحمه الله عليه في شهر شوال سنة إحدى وثلاثين بعد المائتين والألف أخذت في شرح ما بقي تكميلا للمرام، بإشارة من الإمام المذكور الحامي بيضة الإسلام، راجيا من الله التوفيق و العصمة، وأن ننفع به جميع الأمة، صح المراد منه.

وقال في آخر الجزء التاسع الذي هو خاتمة الكتاب: قال مؤلفه عفا الله عنه ولطف به في الدارين: قد كمل الشرح والحمد لله على التيسير والتكميل، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وكان الإمام السلطان، الحامي دين الإيمان، أبو المكارم والمواهب مولانا سليمان، قد أمر بشرح هذا الكتاب، كما تقدمت الإشارة إليه في ابتداء الخطاب، وحبس على تدريسه حانوتًا بسوق السباط من هذه الحضرة الإدريسية كما تقدمت الإشارة إليها وإلى حكايتها وتحديدها عند قول المصنف في هذا الباب وسقط أخ لأب بأخت شقيقة، ثم توفي برد الله ضريحه، وأسكنه من الجنان فسيحه، وقد بقي الشيء القليل لإتمامه فجدد الحث على الإتمام نجل أخيه وخليفته من بعده، وسيف الله في أرضه، فرع الملوك العظام، أمير المؤمنين، ومعز الدين، مولانا عبد الرحمن بن هشام، خلد الله ملكه المخمد لنار الفتن والأشرار، وأدام أيامه جارية على نهج جده النبي المختار. صح من خطه.

ومن ذلك أمره لأربعة من صدور علماء دولته وهم القاضي أبو العباس أحمد ابن شيخ الجماعة الشيخ التاويد ابن سودة والشيخ عبد القادر ابن شقرون والشيخ محمد بن أحمد بنيس والشيخ الطيبين عبد المجيد بن كيران بشرح الأربعين حديثا النووية كل واحد منهم يقوم بشرح ربع منها، فامتثلوا، وشروحهم متداولة بين سائر الطبقات طبعت بفاس عام تسعة وثلاثمائة وألف، وكم أبرزت من تآليف بأوامر وجليت من نفائس الفوائد العلمية بإشارته الزكية، أثابه الله بالرحمة والغفران.

السلطان أبو زيد عبد الرحمن بن هشام

ولد عام ١٢٠٤ أربعة ومائتين وألف.

وبويع له بفاس بعهد من عمه السلطان سليمان في سادس وعشري ١٦ ربيع الأول عام ١٢٣٨ ثمانية وثلاثين ومائتين وألف موافق ١١ دجنبر سنة ١٨٢٢.

وتوفي بمكناسة الزيتون يوم الإثنين تاسع وعشري محرم فاتح عام ستة وسبعين ومائتين وألف موافق ٢٨ غشت سنة ١٨٥٩ وصلى عليه قاضي الجماعة بالحضرة المكناسية شيخه أبو عيسى المهدي ابن سودة المري القرشي ودفن ليلا بضريح جده أبي الأملاك المولى إسماعيل رحمهما الله.

كان له اعتناء بالعلم وذويه شأن سلفه الصالح واهتمام كبير بتنظيم التعليم وترتيب الدروس وهو ثاني المؤسسين لنظام التدريس بالقرويين في الجملة، وقفت له على ظهير في الموضوع أصدره لقاضي فاس إذ ذاك الشريف مولاي عبد الهادي هذا نصه:

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه (وبعده الطابع بداخله: عبد الرحمن بن هشام الله وليه):

ولد عمنا الأرضى الفقيه القاضي مولاي عبد الهادي وفقك الله وسلام عليك ورحمت الله وبركاته وبعد فقد بلغنا توافر طلبة العلم على العادة، وجدهم في الطلب